بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ....

فإنَّ للأندلس مكانة عظيمة في كل إنسان عربي ومسلم ،ولمحنتها في كل نفس مسلمة رنة حزينة ، ولحضارتها عند كل مثقف مكان مرموق بداخله ،وفي كل عصر من العصور الأدبية يحظى الأدباء بمكانة يذكرها التأريخ عبر السنين ، ومن بين هؤلاء الشعراء، الشاعر عبد الجبار بن حمديس الصقلي (ت ٥٢٧هـ)، ذلك الشاعر الذي وصفه د.أحسان عباس بأنه (وهب شبابه للحب والحرب والتمتع بالحياة ولذائذها فكان يخرج مع صحبه إلى الحانات أو الأديرة ليشرب الخمر ويسمع الغناء وينعم بمناظر الرقص)[١] وقد قمت باستقصاء لأهم الدراسات التي تناولت الشاعر وهي :

١ـ الصورة الفنية في شعر ابن حمديس الصقلي ، دراسة بلاغية نقدية ، محمد بن ماجد العصيمي ،رسالة ماجستير في جامعة الإمام سعود.

٢ـ ابن حمديس الصقلي حياته من شعره ، سعد إسماعيل شلبي .

٣. ابن حمديس الصقلي شاعراً ، سعد إسماعيل شلبي .

٤ـ ابن حمديس حياته وشعره ، عبد لهادي زاهر ،رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، عين شمس ،

٥ـ الموازنة بين البحتري وابن حمديس الصقلي ،سليمان مفتاح منصور، ماجستير ، كلية الآداب ،جامعة السابع من ابريل الجماهيرية الليبية .

٦. رثاء الأسرة في شعر ابن حمديس الصقلي دراسة موضوعية وفنية ، مصلح بن

---

[١]ـ العرب في صقلية ، إحسان عباس ،ط١، دار بيروت . لبنان ، ١٩٧٥م : ٢٣٤

بركات المالكي ،ماجستير ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة .
٧ـ ابن حمديس حياته و شعره ، خالد محمد الحسن .
٨ـ الزمن في شعر ابن حمديس الصقلي ، ختام العبودي .
٩. ترجمة ابن حمديس الصقلي ، عبد الغني المنشاوي ـ مصطفى السقا
١٠. ابن حمديس الصقلي ، علي مصطفى المصراتي .
١١ـ الوطن في المنظور النفسي في شعر ابن حمديس الصقلي ، ستار جبار رزيج ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة بغداد .

وبعد البحث والعناء الطويل لهذه الدراسات ، لم اعثر عليها ،ولم أجد من الباحثين قد تطرق إلى هذا الموضوع ، سوى أطروحة الدكتوراه للباحث ستار جبار رزيج منشورة على الانترنت بعنوان(الوطن في المنظور النفسي في شعر ابن حمديس) ، من خلال لمحة سريعة ، لا تتعدى الأسطر ، أما البقية فكانت عناوين لم أصل إليها ، لذلك أثرت الدراسة لهذا الموضوع وأسهبت فيه ، فبدأت بتمهيد تحدث فيه عن أسباب الإقبال على شرب الخمرة للأندلسيين ، ثم عرجت على الشاعر وكيف أغرم بها فأصبحت جزءاً من حياته ، حيث بلغت منه مبلغاً كبيراً إلى حد التقديس واستطاع أن يخلق عالما خاصاً به يمتزج فيها الروح والجسد ، فتذوب النفس فيها شوقاً إلى الخلاص من المصائب والأحزان ، وعدت علماً من أعلام السعادة والجمال وطريقاً للهروب من سجن الدنيا وقيودها إلى الفضاء المفتوح ، حتى قال عنه د.احمد ضيف (أبدع في وصف الخمر بابتكارات عجيبة وخيالات غريبة)[١]وكان يرى الناس (جميعاً سكارى .... وكأن الخمر حلال لا حرام ، وكأنها أكمل شيء في الوجود)[٢] ،وبذلك يُمْكن عَدُهُ شاعر الخمريات في الأندلس .

---

[١]بلاغة العرب في الأندلس ، أحمد ضيف ،ط٢، دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسة ، تونس ،١٩٩٨م، : ١٥٥

[٢] ـ المصدر نفسه : ١٦٤

تناولت الدراسة هذه عناوين عدة أطلقنا على العنوان الأول : الخمرة النفسية ، حيث جعل الخمرة وسيلة من وسائل التغلب على الهموم والأحزان، وكان العنوان التالي : الخمرة الفنية حيث خرج الشاعر في خمرياته على الموروث النقدي لبناء القصيدة العربية ، في الوقوف على الأطلال ، ودعا إلى جعل الخمرة بديلاً عن هذه الأطلال . ويليه تحدثنا عن تجليات الزمن في خمرياته، والتي تناولت فيها حنين الشاعر إلى الماضي عبر الزمن الذي يعيش فيه وما أصابه من تقدم العمر وفقدان الشباب وفقدان اللذة وبكائه عليها .ثم تناولت أماكن شرب الخمر عند شاعرنا من أديرة عامرة بالندماء والجلساء وبساتين ورياض مفتوحة وانهار جارية ، كان يستأنس بها الشاعر ويحب الشراب فيها ،وفي الموضوع الآخر من خمرياته تناولت البيئة الحضرية التي ظهرت في خمرياته في البحث عن اللذة وحضور المرأة الراقصة والساقية والمغنية ،ثم أنهيت البحث في الخاتمة واهم النتائج، وفي الختام أشكر الله تعالى في أن وفقت في انجاز هذا ،ليكون لبنة من لبنات الصرح العلمي في مجال الأدب الأندلسي .

التمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد .....

فإن ظاهرة شرب الخمر لم تكن مقصورة على أهل الأندلس ، فقد سبقهم أهل المشرق العربي وكان الإقبال عليها شديداً ، فقد حاول بعض الحكام تطهير المجتمع من هذه الآفة كالحكم بن المستنصر (ت ٣٦٦هـ) ،عندما عزم على قطع شجرة الكروم ليحول بين الناس وبين صنعها ،ويقابل هذا العمل نفرٌ من الناس يدافع عنها[١] ،فهذا يوسف بن هارون الرمادي يدلي بدلوه فيقول[٢] :

بخَطب[٣] الشَّاربينَ يَضيقُ صدري ..... وتَرْمِضُني[٤] بلْبِيَّتُهُمْ لعَمْري

وهلْ هُمْ غيرُ عُشَّاقٍ أُصيبوا..... بفَقدِ حَبائبٍ ومُنُوا بهَجْرِ

أعُشَّاقَ المُدامةِ[٥] إنْ جَزِعْتُمْ..... لفُرقَتِها فليسَ مَكانَ صَبرِ

سَعى طُلاُبكُمْ حتَّى أُريقَتْ..... دماءٌ فوق وَجهِ الأرضِ تجري

تَضَوَّعَ عَرْفُها شرقاً وغرباً ..... وطَبَّقَ أُفقَ قُرْطُبَةٍ بِعطْرِ

واعتناء الأندلسيَّن للخمر له دوافع وأسباب منها(مزاجهم الحاد العتيق الذي ولدته فيهم حربهم الدائمة لنصارى الشمال إذ تقوم حياة المحارب دائماً إلى الحدة

---

[١]. ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ، د، أحمد هيكل ،دار المعارف بمصر،١٩٨٥م : ٢٨٤

[٢] . شعر الرمادي ، تحقيق ماهر زهير حداد ، المؤسسة العربية للدراسات ،بيروت ١٩٨٠م : ٧٣

[٣]. الخطب : الشأن والأمر صَغُر أو عظم:القاموس المحيط ، للفيروز ابادي ت٨١٧هـ ، ضبط وتوثيق يوسف الشيخ محمد البقاعي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،٢٠٠٥م : ٧٦

[٤] ارمضه : أوجعه واحرقه : المصدر نفسه : ٥٧٩

[٥] المدام ، الخمر ، المصدر نفسه : ١٠٠٠

والعنف والإقبال على فنون المتاع)[١]، أو إنهم كانوا ينشدون الشرب (لذاته بحثا عن مزيد من الكيف والطرب ،واستغراقاً في اللهو اللذيذ)[٢]، وقد يكون للطبيعة (اثرٌ على الشعراء ، بتقلبات أحوالها وتغيرات أنوائها ، فالبرد والثلج أيام الشتاء ، والسحر والاخضرار أيام الربيع، وأنتعاشات النسيم العليل وسنا الفجر العبق على امتداد أماسي الفصول وغدوتها هذه كلها من منشطات لشرب الخمر وعقد مجالسها)[٣]،أو أن المجتمع الأندلسي (يميل بطبعه إلى حياة اللهو ، وهو مجتمع مدني مترف تنوعت أجناسه البشرية ، لاسيما أن العنصر الرئيس فيه هم سكان البلاد الأصليين الذين انتشرت في بيئتهم حانات الخمر ، وكانوا يعقدون المجالس عليها ، كما كانت لهم فيها عادات وطقوس)[٤] ، بينما يرى عناني أن الشخصية الأندلسية عانت نوعاً من القلق جعلتها تسعى إلى ما يشعر بالزمن أو إلى ما يسكن على الأقل بعض هذا القلق، فمالت إلى ألوان المتع الحسية كالشراب والغناء والرقص والموسيقى وغيرها[٥] ونوافق الرأي الذي أشار إليه د .أسامة اختيار في أن إقبالهم للخمر يرجع إلى تنوع الجنس البشري في هذه البلاد والتصاقها من الشمال بالدول النصرانية والطبيعة الخلابة التي تتمتع به هذه البلاد ، فضلاً عن السبب الذي يبدو خفيا عن الأنظار وهو ضعف الوازع الديني عند بعض الأشخاص في هذه البلاد .

لقد ازدهر هذا الفن بالأندلس في عصورها التاريخية المتعاقبة ، وكان من ألمع روادِه، عبد الجبار بن حمديس الصقلي (ت ٥٢٧هـ)، الذي عاش في عصرين مختلفين من ناحية طبيعة الحكم في هذه البلاد ، (الطوائف والمرابطين) ، وقد

---

[١] تاريخ الأدب العربي ـ عصر الدول والإمارات الأندلس،د. شوقي ضيف، ط٢،دار المعارف بمصر ١٩٩٤م: ٢٩٣

[٢] الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، د. محمد مجيد السعيد ،ط٢،الدار العربية للموسوعات ،١٩٨٥م : ٢٠٢

[٣] المصدر نفسه : ٢٠٣

[٤] الشعر العربي في جزيرة صقلية اتجاهاته وخصائصه الفنية منذ الفتح حتى نهاية الوجود العربي فيها ، د أسامة اختيار ، ط١، وزارة الثقافة ـ دمشق ، ٢٠٠٨م : ٧٢

[٥] ينظر : تاريخ الأدب الأندلسي ، د .محمد زكريا عناني ، دار المعرفة الجامعية ،١٩٩٩م : ٤٠

تناول الشاعر الخمرة وحلل العواطف المتباينة في نفسه ،وأضفى عليها سمات الفن والإبداع مستعيناً بطاقاته الفنية والإبداعية والروحية ،فالخمرة عنده لم تكن شراباً عابراً بل أصبحت مخلوقاً ذا شخصية فردية بذاتها ، وهذا الكيان أو الذات كانت تنسجم مع نفسية وأعماق أسرارهِ ، فهو يراها شقيقة لروح الفتى،إذ وجدت فالأسى يعدمُ ، وهذه الألفاظ لا يستعملها باللفظ المجازي ، بل تعني أنها فعلاً (شقيقة روحه) ، ويصف قدمها ومكان حفظها ، إذ يقول[١]:

دَمُ الكرمِ في الكأس أم عَنْدَمُ[٢]..... به تُخْضَبُ الكفُّ والمِعْصَمُ
أصفراءُ يَبْيَضُّ منها الحباب ..... أمِ الشمسُ عن أنجمٍ تبسِمُ
وتلك شقيقةُ روحِ الفتى..... إذا وُجِدَتْ فالأسَى يُعْدَمُ

وفي نص آخر يقول[٣]:

مُدامَةٌ للرّوحِ أُخْتٌ بَرّةٌ ..... يَنأى بها سُرورُنا عَنِ التَّرَحْ

ويرى سرور الروح ورواحها لا ينال إلا في هذه الأم وهذه الأخت ، إذ يقول[٤] :

فأدرْ للروح أُخْتاً والزرا..... جين[٥] بنتاً وسرورِ النفس أمْ

وهذا الهيام والتعلق جعلته لا يرى غيرها في نفسه وعقله ، فيقدسها ويسجد إليها[٦]، ضارباً عرض الحائط التعاليم والقيم الدينية والاجتماعية ، ونرى أن هذا النوع من القصائد الشعرية يعطي بُعداً روحياً ، ويطرح أسئلة واستفسارات في الذهن ، وهي أن هذه الخمرة مقدسة عنده ، وفي الوقت نفسه تمثل بعداً معنوياً آخر وهي إنها طريقاً للوصول إلى اللذة التي يسعى إليها.وولعه بالخمرة جعلتهُ يستعملها بأسماءَ

---

[١] ـ ديوان ابن حمديس ، تعليق د. يوسف عيد ، ط١،دار الفكر العربي . بيروت لبنان ، ٢٠٠٥م: ٣٧٤

[٢] ـ عندم : نبات يصبغ به : القاموس المحيط : ١٠٢٩

[٣] ـ ديوان ابن حمديس : ١٠٥

[٤] ـ المصدر نفسه : ٣٩١

[٥] الزراجين : شجر العنب : القاموس المحيط :١٧

[٦] ـ ينظر: ديوان ابن حمديس ، القصيدة : ٤٢٩

كثيـــرة ، فقـــد أورد أســـماءها فـــي قـــصائد مختلفـــة فهـــي : الـــصبوح[١] ، والريحانة[٢]،وكميت[٣]، والقهوة[٤] ،وخندريس[٥]، ومدام[٦]، ومعروف أن هذه الأسماء تدل على أنواع وصفات بعينها للخمرة[٧]، وهذا يدل على إلمام الشاعر بأنواع الخمر وصفاتها .

اتخذ ابن حمديس الخمرة وسيلة من وسائل تبديد الأحزان التي تلاحقه في حياته ، فالصراعات الحربية التي عاشها الشاعر وعدم الاستقرار النفسي جعلته مضطرباً ، قلقاً تلاحقه الهموم والإحزان وهذا القلق والاضطراب بان في شعره وسرى في ثنايا أبياته[٨]، وكان الدواء الحقيقي كما يراه الشاعر هو اللجوء إلى الخمرة كوسيلة لتبديد الأحزان التي تلازمه وتؤذي روحه ،فهي تروي عطشه وتقرب غائبه وتحقق أمنياته البعيدة وتدني سروره ونشوته وسعادته التي يبحث عنها ، ففي قصيدته الهائية يبدأ بوصف هذه الخمرة ، فلونها الأصفر يشع كضوء الشمس ، وهذه الإشارة تدل على رمزية الحياة والتجديد فكلاهما يشعان نوراً وضياءً، ويعطي لهذه الخمرة بعداً إنسانياً ، فلها أحساس كإحساس البشر، فالماء يلاعبها فتهدأ وتبتسم له ، ويتعامل معها كتعامل الإنسان ، مشخصاً غير العاقل بصفات العاقل ، جاعلاً منها مجالاً حيوياً للإحساس بإنسانيتها ، كاشفاً عن مقدرته الأدبية والإبداعية في أظهار مشاعرها وإحساسها ، وهذه الخمرة تسمو نفسه إليها .

---

(١) ـ ينظر : المصدر نفسه ، القصائد : ١٠٨ ، ١٩١، ٤٦٦

(٢) ـ ينظر :المصدر نفسه ، القصائد : ٤٠ ، ١٠٢

(٣) ـ ينظر: المصدر نفسه ،القصائد : ٤٧ ، ٩١

(٤) ـ ينظر: المصدر نفسه ، القصائد : ٤٨، ٦٩، ١٠٤، ١٠٦ ،١٠٧ ، ١١٦ ، ١٨٧

(٥) ـ ينظر :المصدر نفسه ، القصائد : ٦٩

(٦) ـ ينظر :المصدر نفسه ، القصائد : ١٣٨ ، ١٠٥ ،٣٩٠

(٧) ـ ينظر :المختصر من قطب السرور ، اختاره علي نور الدين المسعودي ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، تونس ، ١٩٧٦م : ٢٨ ـ ٣٨

(٨) ينظر: الأدب العربي في الأندلس تطوره ـ موضوعاته وأشهر أعلامه ،د. علي محمد سلامة ،ط١،الدار العربية للموسوعات ،١٩٨٩م : ٣٢٠

فإذا ما أصابه بأس وحزن استجار بها ، وهذا الشعور والإحساس يخلق عنده نوعاً من العالم غير العالم الذي يعيش فيه بعيداً عن الواقع الحقيقي ،مستعيناً بأسلوب التشخيص ، مبرزاً إياها في مكانتها السامية في عينه ، إذ يقول[١]:

وصفراء كالشمس تبدو لنا .... من الكأسِ في هالةٍ مستديرة

يلاعبها الماءُ في مَزْجِهـا .... فيضحكها عن نُجومٍ منيره

إذا جار هَمُّ الفتى واعتـدى...................... رأيتَ بها نفْسَهُ مستجيره

فَتَرْوي صداه وَتدْني مُنـاه..................... وتـرْدي أساه وَتـُحْيي سروره

يشبه الشاعر الخمرة بالشمس وما تمنحه هذه الشمس من نور وضياء وحياة ، ولا يلبث الشاعر من أن يستعمل تراسل الحواس في تقريبه للصورة التي يسعى إليها، جاء ذلك في حاستي البصر(صفراء) وحاسة السمع ،عندما يلاعبها المـــاء ،فضلا عن إبراز الشعور بها .

ويرى الدواء الحقيقي لموت الأسى والحزن ، بشرب خمرة أصيلة من شجر العنب عُصرت وتقادمت مع الأيام، ويدعو إلى شربها في أوقات الصباح ، فإذا مازجها الماء كونت عقداً منظماً ، إذ يقول[٢] :

أوَميضُ البرقِ في الليل البهيمْ ..... أم أباةُ الشمس في كأسِ النديـمِ

فـتـلَـقَّ الرَّوْحَ من ريحانةٍ ....حيِّتِ الشَّرْبَ بها راحةُ ريــــمِ

عـُصِرَتْ والدهرُ يومٌ مـُفـْرَدٌ.................. كقسيمٍ لم تـُجـزْهُ بِقَـسيــمِ

جـُنِيتْ أعنابُها مِنْ جَنـــةٍ .... نـُقِلتْ منها إلى حَرِّ الجَحيـــــمِ

فلـبوسُ النار فِيها سكــةٌ[٣]................. حكَمـتْ للشـَّرْبِ منها بالنـَعيــمِ

كفَّ حكمُ الماءِ منها سورةً .... تـُسْكِرُ الصّاحيَ منها بالشـّميــمِ

وكأن الكأسَ تاجٌ كُـلـِّلـتْ .... جَـنـَباتٌ منه بالدرّ النـَظيـــــمِ

وقواريرُ حبَابٍ سَبـَحتْ................. من سُلافِ الكرم في ماءٍ كريــــمِ

---

[١] ديوان ابن حمديس : ١٨٩

[٢] ديوان ابن حمديس : ٣٩٧

[٣] سكة : قليل الكلام ، القاموس المحيط : ١٤١

فـَهِيَ الدّرْياقُ مِنْ سَمّ الأسى.............حيثُ لا يـَشـْفـيكَ درياق الحكيـــــمِ

والأسى والحزن الذي يلازم الإنسان وكأنه داءٌ قد نزل بالجسد ، لا علاج له إلا بخمرة أصيلة ،تحرق من يلمسها لقوتها وتأثيرها للنفوس ، إذ يقول(١):

يا تاركاً راحاً تـُسَلـّي هـَمـهُ .... هـلاّ اتـّقـَيْتَ السَّمَّ بالدُّرْيِاقِ

وتناوَلتْ يـُمـْناكَ ناراً لم تـَـخـَفْ........... في لمسها لذعاً من الإحــــراقِ

حمراءَ تشربُ بالانوف سُلافـهــا............ لـُطـْفاً وبالأسْماع والأحــداقِ

بزُجاجةٍ صـُوَرُ الفوارسِ نـَقـْشـُها............... فـتـرى لها جرْياً بكفِّ السـّاقي

نلحظ الشاعر يبدأ كلامه بحرف النداء (الياء) للقريب الجالس معه ، لإقناعه ودفاعه عن خمرته التي تعدل السم الذي حل بالجسد ، موظفاً مبدأ تراسل الحواس ، فحاسة البصر عبر عنها في نورها المضيء في الكلمات التالية : (النار ، حمراء ، الأحداق ، ترى) ،كما أن حاسة الشم وظفها الشاعر في لفظة (الأنوف)، فضلاً عن حاسة اللمس في لفظة (لمسها).

والنفس العليلة الظامئة لا تعالج إلا بخمرة يسميها الريحان ، لها إحساسٌ بشري فـ(تداوي الجروح وتسعد النفس وتمنح الراحة لشاربها)(٢) ، ونلحظ أن الشاعر يعتمد على الحواس فهي الوسيلة للإدراك بالمحسوس ،فيضفي عليها نوعاً من الخجل لمن شربها ، إذ يقول :

عَلِّل النفس برَيحانٍ وراحْ .... وأطعْ سَاقِـهَا واعصِ اللواحْ(٣)

وأدِرْ حَمْراءَ يُسْري لـُطـْفاً .... سُكرُها من شَمّها في كـُلِّ صاحْ

لا يـَغـُرَّنَّكَ مِنها خـَجـلٌ ....إنها تبديه في خدَّ وَقاحْ

---

(١). ديوان ابن حمديس : ٣٠٣

(٢)- الخمرة بين عصرين في شعر ابن حمديس وأبي نواس دراسة مقارنة ،أمل صالح رحمة ، مجلة كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد ،المجلد ١٩ ، ٢٠٠٨م : ٧

(٣). اللواح العطش : القاموس المحيط : ٢١٨

ونجد الشاعر يكثر من استعمال فعل الأمر باتجاه الخطاب المباشر ونعني به توجيه أمراً صادراً من الشاعر إلى مأمور معين[١]، عبر الشاعر في ما يجول في خاطره ، لإحداث التأثير في المتلقي ، جاء ذلك في الكلمات التالية : (علل ، أطع ، اعص ، ادر) كما نجد المقابلة في النص في لفظتي : (أطع ، اعص) ، كما نجد استعمال اللون الأحمر في المقطوعة هذه ،لأحداث التأثر في المتلقي إذ أن هذه الألوان ترمز إلى إثارة العواطف الثائرة والحب الملتهب والقوة والنشاط[٢]

ولهذه الخمرة تأثير على نفسيه المفعمة بالأحزان والهموم ، ولها طاقة روحية عظيمة على شاربها ، فإذا ما وجدت هدمت سجن الحياة وانهارت الأسى والضيق الذي يشعر به ، فجمعت شمل المحبين ، فتعلو عنـــده ، وكـــأن

القارئ يرى أمامه بان هذه الخمرة رمزٌ إلى الشوق والحياة والحنين ، عبر ذلك من خلال تصويره لحركة الجسد عن شربها ، فالأعصاب في الجسد تبقى مستيقظة ، بينما أعين شاربها نائمة ، إذ يقول[٣] :

دَمُ الكرمِ في كاس ام عنْدَمُ ..... به تخْضَبُ الكفُّ والمِعْصَمُ

يبيتُ لها سَهَرٌ في العروقِ ..... وأعين شُرّابِها نوّمُ

كأنّ لها في خفيّ الدّبيبِ .....نمالاً مساكنُها الأعظُمُ

ونفيها للحزن وهموم النفس ، أصبح رمزاً للشاربين، بلونها الوردي وكأنها نجوماً تشع من خيوط الشمس ، إذ يقول[٤]:

وَوَرْديّةٍ في اللوْن والفَوْحِ شُعشِعَتْ ..... فأبدتْ نجوماً في شُعاع من الشمسِ

---

[١] ينظر :خصائص الأسلوب في شعر البحتري ، أطروحة دكتوراه ، وسن عبد المنعم ، كلية الآداب ـ جامعة بغداد . ٢٠٠٨م. : ١٢٤ـ١٢٥

[٢] ينظر أثر كف البصر على الصورة عند أبي العلاء المعري ، رسمية موسى السقطي،مطبعة أسعد بغداد، ١٩٦٨م:٤٤

[٣] ديوان ابن حمديس : ٣٧٤ـ ٣٧٥

[٤] المصدر نفسه:٢٦٦.

نَفيتُ هُمومَ النفس ِ مِنـْها بِشُرْبةٍ .... دَبيبُ حُميّاها يرقّ عن الحسّ

ويقابل الحزن الفرح والفرج والذي لا يأتي إلا بشربها وهي تفوح بعطرها الزكي ،وبعمرها القديم ،ويضفي إليها التشخيص فقد تربت في حجور السنين ، إذ يقول(١):

وحمراءَ تنشرُ ريَّا العبيرِ .... وفي طيَّهِ فـرَجٌ للحز

معتـَّقـَةٌ شـُقّ عنها الثـّرَى .... وحيّ السرورِ بها في دفينْ

تـرَبّتْ مع الشمس في عمرها .... مـُنـقـّـلةً في حُجورِ السَنين

وسمة التفاؤل والسرور لا يجتمعان عند ابن حمديس إلا بشرب خمرة معتقة دار عليها الزمن وشَرِبْ ، فتلعب بالفتى وبعقله ، كما نجد أن الشاعر الأندلسي لم يستطع أن ينفصل عن بيئته الأندلسية في تفجير مشاعره الحقيقية ، مصوراً يوماً من أيام الأندلس حيث الغيوم المتراكمة والأمطار الساقطة وألوان الطيف البارزة في كبد السماء ، إذ يقول(٢):

ذخيرَةٍ للعيـــــشِ مـرّ لعـمرها .... عدَدٌ يشق على يدَيْ من يحسبُ

دَبّابَةٌ في الرّأسِ يَصْـعدْ سُكْـرُها.................. فتجدّ منا بالعقولِ وتلعبُ

دارَتْ بعقلي سَورةٌ من كأســـــها .... حتى كأنّ الأرضَ تحتي لولبُ

قالوا : الصبوحُ فقلتُ : قـرِّبْ كأسـَهُ .... إنـّي لُمِهديها بها أتقَـرَبُ

باكرتـُها واللـيل فيه حـُشـاشـَة (٣)................... يستلـّها بالرّفق منه المغربُ

والجوّ أقـبلَ في تراكبِ مـُزْنـــهِ .... قـُزَحٌ بعطـفـةِ قـَوْسِه يتـَنـَكّبُ

صابتْ فأضحكتِ النديمَ بأكْؤسٍ .... عـَهدي بـه من نـقطهنّ يـُقـَطبُ

والبشرُ في شربِ المدامةِ فارتقبْ............. منها سرورَ النفسِ ساعةَ تـعْذُبُ

---

(١)ديوان ابن حمديس :

(٢) ديوان ابن حمديس : ٤٦٦

(٣) ينظر : حشاشة : بقية الروح في المريض والجريح ، القاموس المحيط : ٥٣٠

نلحظ في هذا النص تكرار حروف بنية الكلمة في السياق ، والذي يعدُه أهل البلاغة من أفضل طرق الإقناع وخير وسائط تركيز الرأي والعقيدة في النفس البشرية[١] والغرض منه هو جعلها من الوسائل المهمة في أداء المضمون الشعري ، فضلا عن القيمة التنغيمية للنص ،ويظهر تميز حرف الباء عن الحروف الأخرى ، بشكل بارز داخل السياق النصي ، ليظهر عن القيمة الدلالية لهذا الصوت والتي تمخض في إشاعة التفخيم والهيبة ،ليناسب أجواء مفردات القصيدة في النص وارتباطها في المضمون الشعري إذ أن للصوت علاقة وطيدة باللغة الشعرية لان الصوت (نابع من أحساس الشاعر ومن وعيه بأهمية الحرف والكلمة ومن ثقافة لغوية واسعة تتلاقى مع مدركات ذهنية وجمالية في نفس الشاعر)[٢]، وقد جاء في الكلمات التالية: الصبوح ،قرب ،أتقرب، يحسب،دبابه ، بالعقول ، تلعب ،بعقلي ، لولب ، باكرتها، بالرفق ، المغرب ، أقبل تراكب ، بعطفيه ، يتنكب ، صابت ، باكوس ، به ،يقطب ، البشر ، شرب ، ارتقب ، تعذب ، وهذا الحرف من الحروف الانجارية ، فضلاً عن الأصوات الانفجارية الأخرى، كصوت الدال والقاف ،ويبرز تكرار هذه الحروف في النص للدلالة عن الجو النفسي الذي يعيشه ويسيطر عليه .

وحروف الهاء والتاء والسين في النص بارزة في السياق النصي، وتعد من الحروف المهموسة، ومرد ذلك هو أن الشاعر في حالة سكر فلم يستطع الجهر بالأصوات العالية ، لان السمة البارزة لحديث السكارى أنهم يحاولون جمع سيناتهم وكذلك الحروف ذات المخارج المقاربة لمخرج السين[٣].

---

(١)ـ ينظر ، البلاغة ـ عرض وتوجيه وتفسير ، محمد بركات أبو علي ،ط١، دار الفكر عمان ،١٩٨٣م : ١٥٢ـ ١٥٣

(٢). اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي تلازم التراث والمعاصرة ، محمد رضا مبارك ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ،١٩٩٣م : ١٩٣

(٣) ينظر : الشعر الجاهلي (منهج في دراسته وتقويمه) ، د. محمد النويهي ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر : ٦٧ـ ٦٨

وفي نص آخر نجد أن الشاعر يرسم أبعاداً أخرى لهذه الخمرة ،إذ عدها وسيلة من وسائل تغير طباع الناس بعد حلولها في الجسد ، جاعلاً منها أبعاداً نفسية ، فتصبح وعاءاً للحب وصفاء النفس والأخلاق والكرم ، وتحول قلوب الشاربين من الشدة والقسوة والعنف إلى اللين والسماحة والعفو ،وتجعل الكئيب مسروراً متفائلاً ، إذ يقول[١]:

وكَمْ مِنْ كُميتِ اللونِ تحْسبُ كأْسَها ..... لها شَفَةٌ لَعْساءُ ذاتُ لَمى عَذْبِ
إذا مُزِجَتْ لانَتْ لنا وتَحَوّلَتْ ..... بأخلاقِها عن قَسْوَةِ الجامِحِ الصَعْبِ
جرَى في عرُوقِ النارِ ماءٌ كأنّما ..... رِضَى السِلْمِ منها يَتّقي غضَبَ الحَرْبِ
وإن نالَ منها ذو الكأبةِ شُرْبَةً ..... تَسرّبتِ الأرواحُ مِنها إلى القَلْبِ

وفي نص آخر يحتفل بالخمرة ويشربها بجوار الحبيبة وقت الصباح في بيئة أندلسية مفعمة بالحياة والحركة مع سقوط المطر وضوء البرق وصوت الرعد ، وكل هذه المجسات تدفع الطبيعة والطيور إلى المشاركة باحتفاله هذا ، فيصف الخمرة بأنها درٌ مرصع بالياقوت ويبالغ في وصفها وتأثيرها ، حتى إنها إذا ما لامست حجر أصم أورق دبت فيه الحياة ، وإذا كان فعلها في الحجر الأصم فكيف بحال الإنسان ذي المشاعر والإحساسيس ،فتوثر فيه وترهق جسمه ، وفي نهاية الأمر يصبح مصروعاً ومغلوباً على أمرهِ ، فقد أضحت جزءاً من جسمه في عروقه وعصبه ، إذ يقول[٢] :

يا شقيقَ النفس أنفاس الصَّبا ..... برَدَت والصبحُ لا شكَّ اقتربْ
قمْ أمتّعك بعيشٍ لمْ تقَعْ ..... في صفاءٍ منْهُ أقذاءُ النُّوَبْ
فلقد حان لضوءِ الفجر أنْ ..... يضربَ السرحانُ فيه بذنبْ
فأدِرْها تحتَ ليلٍ سَقْفُهُ ..... ظلمةٌ فيها من النور ثقبْ
أو على برقِ سماءٍ ضاحكٍ ..... غيمهُ بالدمع منه منسكبْ

---

[١] ديوان ابن حمديس : ٤٧

[٢] ديوان ابن حمديس : ٦٨ ـ ٦٩

سَكرَ الرّوضُ وغنى طيرهً ..... أفلا ترقص قامات القُضـــبْ
هات دُراً فيه ياقوت ٌ وَخُذْ ..... جِسْمَ ماءٍ حاملاً روحَ لَهَـبْ
قهْوة لو سقيتها صخرة ..... أورقتْ باللهو منها والطـــربْ

قتلتني وهي بي مقتولة ..... صولة الميت على الحي عجب
كيف لا تصرعُني صَوالةٌ ..... وهي مني في عروق وعصب ْ

نلحظ في النص الظواهر البلاغية فيه ، فقد استعمل الشاعر أساليب البلاغة كحروف النداء وأراد منه (تنبيه المدعو وطلب إصغائه وإقباله على الداعي)[1]، فالشاعر ينادي محبوبته ، بحرف النداء (الياء) فهي بجواره وقريبة عليه لينبهها إلى الاستمتاع معه وحثها على التشويق والتزيين لرؤيتها للحياة وما فيها من أحداث ومفاجآت فهي تعدل مقدار استمتاعه للذة الحياة والتزود منها ، واستعماله لأداة الاستفهام (الهمزة) لتقرير الواقع الذي يعيش فيه من نشوة وسعادة وإثباته ، كما نجد أساليب أخرى في النص كأسلوب الأمر ،عبر عنه بصيغة فعل الأمر : (قم ، أدرها،هات) ،إن تركيز الشاعر على هذه الأفعال لإحضار القصد والهدف الذي يسعى إليه على المستوين الفني والنفسي، فضلاً عن عناصر أخرى كتكرار بعض الحروف الشديدة ، كحرف القاف والذي استعمله لأكثر خمس عشرة مرة ،وبين الحروف الرخوة ، كحرف السين والذي استعمله تسع مرات ، وبين الاثنين كحرف الراء والذي استعمله أربع عشرة مرة ، إذ تضفي إيقاعاً موسيقياً داخلياً في النص لشدّ انتباه المتلقي وإثارته .

---

(١). جواهر البلاغة ،أحمد الهاشمي ،دار الفكر ـ بيروت :١٠٥

الخمرة الفنية :

ثار ابن حمديس على الأعراف والتقاليد النقدية التي عرفها الشعراء في مقدماتهم الطللية ، في الوقوف عليها ووصفها في اغلب الأعراض الشعرية ، فأصبحت عرفا ثابتا عند الشعراء ، إلا أن هذا النظام قد خرج عليه بعض الشعراء في المشرق العربي وكان من بينهم أبو نواس ، وقد سار على خطا الشاعر ابن حمديس ، إذ دعا إلى (أتباع مذهب أبي نواس والدعوة إلى نبذ المقدمات الطللية وتغييرها إلى مقدمة خمرية)[1]، هذا الأمر نراه من نتاج حضارة العصر في الأندلس ،إذ أن الجمهور الأندلسي لم يعد يستقبل الصيغة التقليدية القديمة في افتتاح الشعر بالإطلال بل اخذ يميل إلى الجديد المعاصر الذي يلبي حوائجهم النفسية ،لذلك يمكن القول إن ابن حمديس كان من المجددين في نظام القصيدة العربية ، عبر عن ذلك في قصائده الخمرية ، ففي قصيدته الميمية يدعو إلى رفض الطلل والافتتاح بوصف الخمرة ، آخذاً مذهب أبي نواس[2]، إذ يقول :

خلعتُ على بـُنـيـّاتِ الكـرومِ .... محاسنَ ما خـُلِعْنَ على الرسومِ

أخذتُ بمذهب الحكـَمي[3] فيها................... وكيفَ أميلُ عن غرضِ الحكيمِ

وما فضلُ الطلول على شـَمولٍ .... تمجّ المسك في نفس النسيمِ

يـُجدِّدُ حبها في كل قلـــبٍ................... اذا صقلـتـْه من صدإ الهمومِ

وكنتُ على قديم الدهر أصبـو .... إلى اللذاتِ بالقصر القديـــمِ

تـُرَدّ إذ ظمئتْ عليّ كأســـي .... كما رُدّ البان على الفطيـــمِ

وما استنطقتُ من طللٍ صموتٍ .... كأنّ له إشاراتِ الكلـــــيمِ

---

(١)ـ مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي دراسة موضوعية فنية ، د.هدى شوكت بهنام ،ط١،دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ٢٠٠٠م. : ٩٨

(٢)ـ ديوان ابن حمديس : ٣٨٧

(٣)ـ الحكمي هو أو نواس ، الديوان : ٣٨٧

بل استنطقـْتُ بالنغمات ِعوداً .... تـَـنـَـبـَّـهَ مـُطـْرِباً في حجْر ريم ِ

وربَ منيمةِ الندماءِ سـُكـْراً .... نفيتُ بها المنامَ عن النـــديم ِ

يفضل الشاعر الخمرة على الطلل ، باستعماله لأداة النفي (ما) ، كما نجد الجناس التمثيلي في النص جاء في لفظة (خلعت ، خلعن)، وقد اتبع في طريقته هذه على مذهب أبي نواس، في رفضه للمقدمة الطللية ، فقد أفضى إلى الخمرة محاسن جمة ، فهي تبعث عطراً زكياً يريح النفوس ، وترفع الهموم إذ تعبت ، فضلاً عن ترويتها للعطشان .

تجليات الزمن في خمرياته:

تكشف لنا خمريات ابن حمديس عن إحساسه بالزمن وتقلباته ،بوصفه قوة عارمة تهدد الإنسان في كل وقت ، ومن آثار تجليات الزمن عند شاعرنا هو الخوف من الشيخوخة والموت،ويقابل هذا الشعور ،التمسك والتشدق بالحياة ومباهجها ، فالخوف من الشيخوخة عنصرٌ بارز في خمرياتـــه ،إذ (كان يحس بمر الزمن ويَعُدْ عمره عداً ....فقد كان يريد أن يبعد فكرة الموت عن نفـسه لأن المـوت لا يتفق والـشباب)[1] ففي قصيدته الهائية ، يظهر الشاعر حزنه وألمه الدفين في قلـبه ،في فلسفة خاصة به، إذ أن اقتراب الشيخوخة وفقدان الشباب ليس حزناً فقط ، بل هو موت حاضر محقق ، إذ يقول[2] :

بكى الناس قبلي فـقـْد الشباب...................... بدمع ِ القلوب فما أنصفوه

وإني عـلـَيْهِ لمُســـتدركٌ.......................... من البثِّ والحزْنِ ما أهملوه

لعمركَ ما الشيبُ إما بـــدا............................بفوديكَ الا الردى أو أبوه

ألم ترَ أنـّكَ بين الشبابِ .... كمن ماتَ أو غاب من شيبوه

وان أبصرَتكَ الدُّمى أنـْكـَرَتْ .... مَعارفَ وَجـْهك منها الوجوهُ

ولكي يتناسى هذا الشعور عنده ، أتجه إلى الخمرة طريقاً للقضاء عليه، ففي

---

(١). العرب في صقلية : ٢٥٣

(٢) . ديوان ابن حمديس :٤٥٠

قصيدته الحائية يدعو إلى راحة النفس بشرب الخمرة وان تكون أيامه مرحاً ولهواً ومتاعاً ،وما يصاحب ذلك من تذكره للخمرة ونشوتها ، فيتلذذ بهذه الذكريات وهذه النشوة ويدعو إلها ويحتفل بها ، لعله يسابق الزمن الذي تجلى عنده في الخوف من فقدان الشباب وريعانه ، إذ يقول[1]:

خلِّني أُفْنِ شَبابي مَرحاً ..... لا يرُدُّ المُهرُ عَنْ طَبْعِ المَراحْ

.....

وانتظرْ للحِلْمِ بعدي كَرَّةً ..... كَمْ فَسادٍ كانَ عُقْباهُ صَلاحْ

.....

فاشرَب الرَاح وَلا تخلِ يداً ..... من يَدِ اللهوِ غُدُوّاً وَرَواحْ

في حديقٍ غرَسَ الغَيثُ بهِ ..... عَبقَ الأرواحِ مُوْشيَّ البِطَاحْ

.....

أفلا تَغنمُ عَشياً يقتضي..... سَيْرُهُ عَنْكَ غُدُوّاً وَرَواحْ

إذا فارقتَ رَيعانَ الصِّبا..... فاللَّيالي بأمانيكَ شِحَاحْ

وفي نص آخر يسابق الزمن الذي يعيش فيه بالسرور والمرح وشرب خمرة متلألئة كمصباح الصباح في أيدي الشُّراب ، وهو يستأنس ويتساءل عن أي نعيم في الشباب من هذا العيش اللذيذ الذي يعيش فيه ، ويدعو لائمه في تركه للومه ، لان الزمان متقلب لا يثبت على حال فيسابقه بالملذات ويرى ذلك غنيمة ، إذ يقول[2] :

أيُّ نَعيمٍ في الصِّبَا والمُقْتَرَحْ ..... وشُغْلُ كَفيَّ بِكُوب وَقدَحْ

فلا تلمني إنني مُغْتَنِمٌ..... من السُّرُورِ في زماني ما مَنَحْ

فإنَّهُ مِسْتَرجعٌ هِباتِهِ..... وَبَاخِلٌ من الصبا بما سَمَحْ

وَسَقِّني من قَهوَةٍ كاساتُها..... تُسرجُ في الأيدي مصابيحَ الصُّبُحْ

---

[1] ديوان ابن حمديس : ١٠٢ ـ ١٠٣

[2] ديوان ابن حمديس : ١٠٣ـ ١٠٤

وفي نص آخر نجد الشاعر يرغب في إعادة التوازن بين زمنين (الماضي والحاضر) ،من خلال تشوقه إلى الماضي والذي يحمل في طياته الشباب والقوة والعنفوان والفروسية والحب مقابل الزمن الآخر (الحاضر) والذي يمثل الضعف وانهزام الشباب والانكسار ،وهذا الشوق يشوبه الألم والحزن والانكسار في كبره وشيخوخته التي حطت عليه ، وشعره الذي سقط من رأسه ،ولم يبق منه إلا شعرة واحدة، كل ذلك أطره في تذكره لمجلس مع ندمائه لشرب الخمرة التي تمثل له الأم التي فقدها فيغلب عليه هذا الشعور،موظفاً تراسل الحواس (الشم ،النظر، السماع) لنقل مشاعر المتلقي إليه ، إذ يقول[1]:

يا رُبَّ مَجلسَ لَذَّةٍ شاهَدتُها ..... كَرْهاً وجُنْحُ الليلِ مَدَّ جَناحا
جَمَعَ الشبابُ بهِ بنيهِ وبينهم..... شَيْخٌ غدا شَيْبٌ عليه وَرَاحا
وكأنه في كلّ داجي شعرةٍ..... في الرأسِ منهُ مُوقِدٌ مِصْباحا
أمسَيتُ مفطوماً عَن الكأسِ التي..... يَتراضعُ الندمَاءُ مِنها راحَا
إلاَّ شميماً كان همّاً سُكْرُهُ..... وغِناؤهُ في مَسْمَعَيَّ نِياحَا
جرّنا على زَمنِ الصِبَا الزاهي الذي ..... عزلَ الهُمومَ وَملكَ الافْراحَا
أبناءُ عَصْرٍ فتّقُوا مِنْ بَيْنهم ..... مِسكَ الشّبيبَةِ بالمُدامِ ففاحَا
جَعَلوا حُداءَهُمُ السَماعَ وأوجفُوا..... بدَلَ القلائِصِ أقْدَاحا
وكَأنَّما نَبَضَتْ لهُم أفواهُهُم ..... بالشُرْبِ من أجْسامِنا أرْواحَا
حتى اذا اصْطَبَحُوا فَرَرْتُ فلم يَجِدْ ..... للشيْبِ بَيْنَهم الصَبَاحُ صَباحَا
ما لي أُكافحُ قِرْنَ كأسٍ جالَ في ..... ميدانِ نشْوَتِه وَجالَ كِفاحَا
وَمُجدَّلٌ شَاكي السِّلاحِ من الصِّبا .....مَنْ لَم يبُقَّ له المشيبُ سِلاحا

نلحظ في النص استعمال الشاعر للكلمات التي تعكس شقاءه وهمومه ، جاء ذلك

---

(١)- ديوان ابن حمديس : ٩٩- ١٠٠

في الكلمات (راحا ، أمسيت ، نياحا ، الهموم ، فررت ، أكافح ،) ، كما نجد تكراراً لحرف الراء بارزا ً في النص ولأكثر من خمس عشرة مرة ، والذي يُعد من أوضح الأصوات الساكنة في السمع[١] ،لينسجم مع حالته النفسية من ألم وانكسار عاطفي بارز .

ويسترسل الشاعر في شوقه وحنينه إلى الزمن الماضي ، مزج فيها الشاعر الطبيعة والخمر والشيخوخة ،في أبعاد ثلاث ، فالطبيعة ، تمثل له مسرحاً للشراب وللهو[٢] ،وتعبر عن الوطن الذي ينتمي إليه ،والخمر تمثل له اللذة المفقودة ، والشيخوخة تمثل الواقع الملموس الذي يعيش فيه، إذ يقول[٣] :

عجبي من سكينتي ووَقَاري ..... بعدَ صَيدِ المها وَخلْعِ العِذارِ
واجتلائي من الشموس عروساً ..... نَقَطَتْ خدّها بزُهرِ الداري

.....

قهوةٌ مزّقتْ بكفٍّ سنـــاها.....بُرْقُعَ الليل عن مُحَيّا النهارِ
عَدَلَتْ بعد سيرة الجور لمّا ..... نَرْجَسَ المزجُ لونَها الجُلّناري
وحكى نَشْرَها النسيمُ ولكن ..... بعدما نامَ في حجور البهار

.....

جوهرٌ يبعث المسرة منه .....عَرَضٌ في لطائف الجسم سارِ

.....

في رياضٍ تنوَّعَ النورُ فيها ..... كالياقيت في حقاقِ التجارِ
فكأنّ البنفسجَ الغضَّ منــه ..... زرقةُ العَضِّ في نهود الجواري

---

(١). ينظر :الأصوات اللغوية ،محمد الخولي، ط١، مكتبة الخريجي ، الرياض ،١٩٨٧م.: ٢٠٠

(٢). ينظر: في الأدب الأندلسي د جودت الركابي ،ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م، : ١٠١

(٣). ديوان ابن حمديس : ٢٢٧ـ ٢٢٨

وكأن الشقـيق حُمْرُ خدودٍ..... نقطَ المـسكُ فوقـها بانتثار
مُطْرِبٌ عندها غناءُ الغواني ..... في سنا الصبحِ أو غناء القماري[1]
كان ذا كلّه زمانَ شـبابٍ ..... كنتُ فيه على الدُّمَى بالـخيـار
هل ترد الأيام حسني ومن لي .....بكمال الهلال بـعـدَ الـسرارِ

وفي نص آخر يتذكر الشاعر عهد الشباب ويبكي عليه، فيعود به الزمن إلى الماضي ويحن إليه ويذكرهُ بأصحابه وملذاته والغانيات الجميلات ، فيتحسر لفقدان هذا الشباب بألم وحزن وعجز مطلق عن مواجهة الحاضر ، فهو مع أصحابه كالحاضر الغائب ،إنها قسوة الزمن وفقدان الشباب وأفول أشارقة الحياة ، فيتيقن استحالة عودة الشباب المسلوب ويستسلم لقوة الزمن ، وقد صور الشعر في هذا النص ملحمة شعرية امتزج فيها اللذة والألم في وقت واحد ، إذ يقول[2] :

حبذا فِتيان صدق أعرسوا..... بِعذاري مِنْ سُلافاتِ الخمورْ
عَرْبَدَ الصحوْ عليهمْ بالأسى..... فاتقاه السُّكْرُ عنهم بالسرورْ
عَمَرُوا ربعَ الصِّبامن قبلِ أنْ.....يَتَمشّى فيه بالشيب دُثُورْ
إن للأعمارِ أعجـازاً إذا..... بُلِغَتْ لم تـثْنَ منهنّ صُدورْ
كلُّ نافي العمر في شـرّتِهِ..... للضَّبَا نارٌ وفي الوَجْنَةِ نُورْ
يَفتنون العيش من قانيةٍ ..... ذاتِ عمرٍ كَثُرَت فيها الدهورْ
أطاعَ الساقي عشاءً مِنهمُ..... أنجمَ الكاساتِ في أيدي البُدورْ
عَدِّ بالأكواب عنّي إنّ لي ..... في يدِ الأنس عنـهـنّ نفورْ
غمَرَ الشيبُ الدجى من لمتي.....بنجوم طُلّعٍ ليـستْ تـغـورْ
لا نشورٌ لشبـابي بعد ما ..... مات من عمري إلى يوم النُّشورْ
وخضاب الشيب لا أقبله ..... إنه في شـعـري شـاهـدُ زُورْ

---

(١). القماري نوع من الحمام ،القاموس المحيط : ٤١٩

(٢). ديوان ابن حمديس : ٢٠٠-٢٠١

أنا مِنْ وَجْدي بأيام الصِّبا........................ أذرفُ الدمع رواحــاً وَبـكـورْ
أصفُ الراحَ ولا أشْرَبُهَا .... وهي بالشّدْو على الشرب تدورْ
كالذي يأمرُ بالكر ولا ....يصطلي نار الوغى حيث تــفورْ
فسواءٌ بين إخوان الصّفا ....وذوي اللهو مغيبي والحـضـورْ

نلحظ تشخيص الشاعر للخمرة ، وكأنها امرأة بكر زُفت إلى فتيان صدق ، مبرراً توجههم إليها هو الأسى الذي يلازمهم، فلها القدرة على أن تهب السعادة والطمأنينة والفرح والغبطة في نفوس الشاربين فتنقلهم من عالم الهموم والإحزان إلى المتعة والنشوة، كما ركز الشعر إلى تنوع أسماء الخمرة، فمرة يسميها بالسلافات ، ومرة ثانية بالقانية ، وأخرى بالراح ، ويصفها بأنها قديمة وعتيقة طارحاً عنها صفة الشباب أو النظارة مثبتا إياها صفة الشيخوخة ،كما نجد الشاعر يتأسف لفقدان شبابه الذي ولى إلى غير رجعة لأنه فقد شيئاً لم يكن بالتافه والصغير ، ففيه أحس بأنواع المباهج والسرور ،وعبر عن صراعه النفسي بين ما تصبو إليه نفسه وبين ما آلت إليه حاله من شيخوخة وكبر .

والتأسف على الشباب وبكائه هو بداية دخول الشيخوخة التي تكشف المخاوف والشعور بالعجز الذي يأبى أن يصرح فيه ، ويبقى دفيناً في أعماقه ،وهذا الأمر حقيقة مؤلمة أراد الشاعر تجاهلها رغم اعترافه ضمناً في قصيدته الخمرية فيتسامى عن هذه الحقيقة التي تبعث في نفسه الشعور بالألم والخوف ، فالتقدم في السن يعني أن الزمن قد سلبه قوة الشباب وملاعب الصبا فيدخله في رحلة الألم والحزن فيبكي تأسفاً لذلك، إذ يقول(١) :

صَفا لي من وِرْدِ الشبيبةِ ما صَفا .... وجادَ زماني بالاماني فأنصفا
ليالي كَانت بالــسرور مـنـيرةً .... وكان قناعي حالكاً لا مُفوّقا
وشربي مَن نَسْلِ الغمام سلالةً................ تـعُودُ من العنقودِ في الدنّ قرقفا

---

(١)ديوان ابن حمديس : ٢٩٥ ـ ٢٩٦، القرقف : الخمرُ يرعدُ عنها صاحبها ، القاموس المحيط : ٧٦٠

مُـعَـتّـقَـةً حمراء ينساغُ صِرْفها .... اذا الماء فيها بالمزاج تصَرّفا

كماءِ العقيقِ في الزجاجِ مُنظمٍ .... عليه من الازباد دُرّاً مجوّفا

تـوقَّدَ في كف المنادم نورُها .... ولكنـه بالشرب في فمه انطفا

تطوفُ بها ممشوقةُ القدّ زرفنَتْ .... من المسكِ في الكافور صُدْعاً مُعَطفا

اذا أعرضتْ في الدلّ ذلّ أخو الهوى............... وصاغ لها لفظ الخضوع المُلطّفا

هناك خَفتّتْ بي الى اللهو صبوة .... وَثـَقـّلَتِ الكاساتُ كفّي بما كفى

كأني لم أقنصْ نوارا من المها .... ولم أجنِ عذبَ الرّشْفِ من مُرّةِ الجفا

....

أما وشبابٍ بالمشيب اعتبرتـُهُ.............. فأشْرَقتُ عينـــي بالدمــوع تأسـفاً

يصف الشاعر أيام شبابه فالليالي التي كان يحيّها مضيئة بالفرح والسرور، مفعمة بخمرة من سلالة أصيلة تقادم عنها الزمن ، لها نورٌ في يد شاربها وهذا النور يدل عل حيوية الشباب وقوته ورمزية للحياة ، ولم ينسَ الشاعر البيئة الأندلسية الانفتاحية على العلم الحضاري ، فالمرأة هي الساقية في المجلس وتشارك الندماء في مجلسهم ، ويصفها بأنها منعمة ومدللة رشيقة القد يفوح منها المسك والكافور في كل مكان نزلت فيه ،كما نجد ذات الشاعر (الأنا) بارزة في ساحة النص عن طريق استعماله لياء المتكلم جاء ذلك في الكلمات التالية : (لي ،زماني ، قناعي ،شربي ،بي ،كفي كأني أجني ، عيني) ،ليعبر عما يشعر ويجول في نفسه ، كما نجد عنصر الطباق حاضراً في النص جاء ذلك في كلمتي (توقد ، انطفأ) .

أماكن شربها:

ارتبط شرب الخمرة بالمكان ، إذ (كان اجتماعهم في قاعة واسعة أو في رحبة من الدار أو موقع من مواقع اللهو في الرياض)[1]،وأصبح جزءاً لا يتجزأ من القصيدة

---

(١)- الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه ، اميليو جارثيا جوميث ، ترجمة حسين مؤنس ،ط٢،دار الرشاد - القاهرة ،٢٠٠٥م : ٦٦

الخمرية ، فقد اتخذ الأندلسيون أماكن للراحة والاستجمام ، حيث البساتين المورقة بالخضرة والمحيطة بالأزاهير ، فأصبحت هذه الأماكن مرتعاً خصباً للراحة واللهو والملذات ،للعامة والخاصة من الناس، وكانت إحدى الأماكن المخصصة لتلك المجالس هي الأديرة التي تقع في ضواحي المدينة ، فتقدم لزوارها الخمرة ، وقد صور الشاعر ابن حمديس هذه المجالس وهذه الأديرة وما يقدم بها ،فضلاً عن الندماء الذين يشاركونه في مجلسه هذا ، ويسميهم بفتيان صدق ، وما حملوه منصفات الرجال من الكرم والأصالة في النسب والأقوال ، ففي قصيدته الهائية يصف الخمرة وعمرها ، ويسميها بعروس باكر ، خطبها هؤلاء الفتية فهم يقدرونها وبينهم فتى قد تمرس في شرب الخمر فعرف مكانتها ، لذلك بذلوا الأموال من اجلها ، وبذلك أصبحت الخمرة منفذاً للحياة ومنابع الجمال في كل الأشياء ، إذ يقول[١]:

وفتيانِ صدق ٍ كَزُهْرِ النجوم .... كرام النحائزِ أحرارها

يديرون راحاً تفيض الكؤوسُ................................ على ظلَمِ الليلِ أنوارها

كأنّ لها من نسيج الحباب .... شباكاً تـُعقـّلُ أطيارها

وراهبةٍ أغلقت دَيْــرها .... فكنـّا مع الليل زوارها

هدانا اليها شذا قهــوةٍ................................ تذيعُ لأنفك أســرارها

فما فاز بالمسك إلا فتـًى .... تيَـمّمَ دارينَ أو دارهــا

طرحتُ بميزانها درهمي ....فأجْرَتْ من الدن دينـــارها

خطبنا بناتٍ لها أربعـاً................................ ليفترع اللهوُ أبكـــارها

من اللائي أعصار زُهر النجوم .... تكاد تـُطاولُ أعمــــارها

تريك عرائسها أيدياً .... طوالاً تصافح أخصـــارها

تفرسَ في شَمِّهِ طيبها ....مجيد الفراسة فأختـــارها

يَعُدّ لما شئتَ من قهوةٍ ....سنيها ويعرفُ خَمّارهـــا

---

[١] ديوان ابن حمديس : ١٨٧ـ ١٨٨

كما أن الطبيعة الأندلسية مكانٌ مفعمٌ بالحياة ومحفزٌ لدواعي شرب الخمر ،وكان لهذه الطبيعة آثرٌ بارزٌ على نفسية ابن حمديس[١]،ولاسيما أن الشاعر عاش في عصر (أقبل الشعراء فيه على مباهج الطبيعة يمتعون النفس بها ويملؤنها بشراً باستجلاء محاسنها ، وينظمون نزهات لهذا الغرض ، وفي هذه الشركات كانت محاسن الطبيعة تثير الشاعر وتشجيه)[٢] ،فكانت هذه الأمكنة منبعاً للأنس والراحة والنشوة ، فيستأنس بجمالها ويطرب لأصوات الطيور وينتشي للروائح الزكية ، ففي قصيدته البائية يمزج فيها الشاعر الخمر بالطبيعة الأندلسية فالرياض أحد الأماكن التي يفضلها الشاعر في شربه للخمرة[٣]،فيصف ظلالها وأزهارها

الفواحة، فضلاً عن الجداول والسواقي فيها ، إذ يقول :

وجسمٍ له مِنْ غَيْرِهِ رُوحُ لذةٍ ..... سَليلِ ضرُوعٍ أُرْضِعتْ حلب السحبِ

إذا قبَض الإبريقُ منهُ سُلافةً ..... تقَسّمَها الشرَّابُ حوليْهِ بالقعْبِ

شَرِبْنا والإصباحِ في الليلِ غرّةٌ..... تزيدُ انْدِياحاً بينَ شرْقٍ إلى غرْبِ

عَلى رَوْضَةٍ تحْيا بحَيَّةِ جدْوَلٍ..... يفيءُ عليه ظِلُّ أَجْنِحَةِ القضْبِ

بأزهرَ يَجْلُو اللهوُ فيه عرَائِساً ..... كرَاسِيّها أيدي الكرامِ من الشَّرْبِ

كأنَّ لها في الخَمْرِ حُمْرَ غَلائلٍ ..... مُزَرَّرَةَ الأطْواقِ باللؤلؤِ الرَطْبِ

وفي نص آخر نجد استشعار الشاعر بجمال المكان الذي يشرب فيه وكأنه في جنة، فالنارنج قد تدلى إلى الناظر، فيدعو إلى شرب الخمرة في وقت الصباح ،ويدعو

---

(١). ينظر :في الشعر الأندلسي،د.عدنان صالح مصطفى ،ط١ ،دار الثقافة الدوحة ، ١٩٨٧م : ٢٢٤

(٢)ـ شعر الطبيعة في الأدب العربي ،د سيد نوفل ، دار المعارف : ٢٧٤

(٣). ينظر: المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، د، محمد عبيد صالح،ط١،دار الأفاق العربية،٢٠٠٧م،١٠٩

إلى الاستمتاع بمزجها بذاك الصوت الذي يخرج منها ،إذ يقول[١] :

بَاكرْ صبُوحَكَ مِنْ سُلافِ القَهْوةِ ..... وامْزِجْ بِسَمْعِكَ صِرْفَها بالنَغْمةِ

وانظرْ الى النارِنْجِ في الطَّبقِ الذي..... أَبْدَى تدَانَي وَجْنَةٍ مِنْ وَجْنَةِ

ومِنَ العَجائبِ أنْ تُضَرَّم بينـــنا..... جَمرَاتُ نارٍ تُجْتَنَى مِنْ جَنَّةِ

نلحظ استعمال الشاعر لفعل الأمر في النص بمزاوجة الجناس المتغير ،لبناء الدلالة الفكرية والعاطفية للنص وتحقيق الهدف المقصود من ناحيتين ،نفسية وبلاغية فالأولى كان الهدف منه هو التأثير في المتلقي ، والثاني بناء فني شعري عبر عنه الشاعر في الكلمات التالية : (باكر ، امزج ، انظر) ،ونلاحظ التعبير ألجناسي جاء في الألفاظ التالية : (جنة ، وجنة ،تجتنى ، جنة) .

وتقلبات الجو بما امتازت به هذه البلاد لم تفارق ابن حمديس في خمرياته ،فهبوب الرياح المعطرة بتأثير الورود والأزهار تركت أثراً عنده ، فيصف وميض البرق في السماء وكأنه شعلة نار قد أضاءت الليل ، إذ يقول[٢]:

وحمراء تلْقَى الماء في قيد سُكرِه..... ويطلق من قيد الأسى شِرْبُها

تَوَلدَ في ما بين ماءٍ ونـــارِها..... مُجَوَّفُ دُرٍّ لا تُطيقُ له ثِقْبا

قَسَتْ ما قَسَتْ ثم اقتضى المزْجُ لينَها.... فكم شرَرٍ في الكأسِ رَشَتْ به الشُرْبا

.....

فهَب نزيفاً والنّسيمّ مُعَطرٌ ..... فما خلتهُ إلا النّسيمَ الذي هَبّا

شَرِبْنا على إيماضِ برقٍ كأنّهُ..... سنا قَبَسٍ فَحْمةِ الليل قد شَبّا

ويسترسل الشاعر في أماكن شربه للخمر فالرياض الكثيفة المتداخلة الأشجار وأصوات الطيور المغردة التي تسحر الأذان والعقول ،هو المكان الذي يخلو بنفسه

---

(١)- ديوان ابن حمديس : ٧٣

(٢)- المصدر نفسه : ١٠٨

فيستمتع بهذا الشراب مع وجود المغنين في هذا المكان ، إذ يقول(١) :

قُمْ هاتِها من كفّ ذات الوشاحْ .... فقد نعى الـلّيلَ بشيرُ الصـــبّاحِ
خـَلِّ الكرَى عنْكَ وَخـُذْ قـَهْوَةً .... تـُهدي إلى الرّوحِ نسيمَ ارتياحِ

....

في رَوضةٍ غنـّاءَ عَنـّتْ بها .... في قـُضبِ الأوراقِ وُرْقٌ فِصَـاحِ
لا يَعرفُ النـّاظرُ أغصانـَها .... إذا تـثـنتْ من قدودِ المــــلاحِ
كأنّ مفتوتَ عَبـيرٍ بـــها .... مُـطيَّبٌ منه هُبُوبُ الرّيـاحِ
مِنْ كلِّ مقصورٍ على رَنـّةٍ .... لو دَمَعتْ عيَنٌ له قلتَ : نـــاحِ
أو ساجعٍ تحسبُ ألحانـَـهُ ....من كلّ نـدْمانٍ علــيه اقـتــراحِ

وفي نص آخر نجد الشاعر يسعى بنفسه إلى هذه الرياض حيث النسيم الهادئ والعطر المنتشر والمنظر الذي يحرك مشاعره وعواطفه الجياشة ، وما تأكيده على هذه الرياض إلا فيه دليل على حبه الحقيقي وارتباطه النفسي والجسدي له ، فهي المكان الذي يفوز بها لذاته ، اذ يقول(٢) :

من قهوةٍ في الكأسِ لمّاعَةٍ .... كالبرق شُـقّ الغيمُ عنــــه فلاحْ
سخيّة بالسكر مَرّتْ عــلى .... دنانِـها بالختم أيـْدٍ شــحــاحْ
وهي جَـمُـحٌ كُـلـّما أُلْجِمَـتْ.................. بالماءِ كَـفـّتْ من غلوّ الجمــاحْ
كأنما الكأسُ طـَلاَ مُـغـْـزِلٍ .... مُرْوِيَــةٍ بالدّر منــه التـيــاحْ
كأنما الإبريقُ في جــسمها...................... ينـفـخُ للندمانِ رُوحَ ارتــيــاحْ
في روضةٍ نفْحَتـُها مِسْكَةٌ .... تـُهْدى إلينا في جــيوب الرّيــاحْ
تميسُ سُكْراً فكأنّ الحيـا.................... باتَ يـُحّييها بكـاســـــاتِ راحْ
كأنما أشجارُها منـْــدَلٌ ....إن لَذَعَتـْهُ جَمْرَةُ الشـمس فـــاحْ
كأنما القَطْرُ به لـؤلــؤٌ...................... لم يجره منه ثـُقَبٌ فـي نِـــصَاحْ

---

(١). ديوان ابن حمديس : ١٠٨ ـ ١٠٩

ولا يحلو لابن حمديس شربه للخمرة إلا في مكان تتشابك أوراقه تجري الأنهار فيه ويسميه بالجنة ، وهذه الجنة ، تجلو سروره ،لا ينقطع عنها المطر ولا يفسدها اذا سقط عليها ،ولكثرت أغصانها أصبحت دروعاً تقيهم ماء المطر فلا يصيبهم ، مصوراً حالهم وهم يقون هذا المطر بهذه الأوراق المتشابكة، ويسترسل الشاعر في وصف هذا المكان ففاكهة النارنج قد هزت وطربت بهذه الاحتفال بتأثير الرياح ، إذ يقول[١] :

نحنُ في جَنّةٍ نبُاكِرُ منها .... ساحليْ جَدْوَلٍ كسيفٍ مُجرَّدْ

صقَلَتْ متْنَهُ مداوسُ شمسٍ ....من خلال الغصون صقلاً مجدّدْ

وَمدامٍ تَطيرُ في الصَحْن سُكراً................ فتَحَلُّ العقودُ منها وَتَعقدْ

جِسْمُها بالبقاءِ في الدن يّبلى .... وقوُاها مع الليالي تتجدّدْ

وإذا الماءُ غاصَ في النار منها .... أخرج الدَّر من حبُابٍ مُنضّدْ

يا لها من عصيرِ في النار منها............. سكرَ الدنُّ من حُبابٍ منّضَّدْ

جَنّةٌ مَجّت الحيا إذْ سقاها............. مُصلِحٌ من غمَامِهِ غيرُ مُفْسدْ

قدْ لبسنا غلائل الظلِّ فيها.............. مُعْلماتٍ من الشعاع بِعَسْجَدْ

ورأينا نارنجها في غصونٍ ....هَزّتِ الرّيحُ خُصرْها فهي مُيَّدْ

كِكرُاتٍ مُحْمرّةٍ من عقيق .... تدرّيها صوالجٌ من زبرْجَدْ

وكأن الأنوار فيها ذبَالٌ .... بسليطٍ من النّدى تتوّقدْ

وكأنّ النّسيمَ بالفرج يُفْشِي..................بين روضاتها سرائرَ خُرّدْ

حيثُ نُسْقى من السرورِ كؤوساً............ ونُغَنّى من الطيورِ ونُنْشَدْ

ذو صفيرِ مرُجَّعٌ أو هديلٌ.............. أسَمِعْتُمْ عن الغريض ومعبدْ

فالشاعر يصف مجلساً من مجالس الشراب ، في أحد الأماكن التي يفضلها عن غيرها ، (البساتين) في جو مفعم بالسرور والبهجة ، فالطبيعة متهللة مستبشرة ،

---

(١)- ديوان ابن حمديس : ١٣٨- ١٣٩

لاستقبال زوارها ، وقد نشرت في أرجائها أطيب الروائح ، في حين تكمل الطيور جمال هذه اللوحة الفنية ،فتغرد وكان تغريدها غناء غلى الغصون موزعة أعذب الألحان ، وبعد أن يكمل رسم لوحته هذه ، نلحظ استطراده في وصف المكان ، مقارنة في وصفه للخمر ، هذا الأمر فيه دلالة واضحة في تعلقه وارتباطه بالمكان الذي عاش فيه ،وقد أشار الشاعر إلى الخمرة أشارة خاطفة ،إذ التفت إليها في أربعة أبيات ، فهو يصف قوتها وهذه القوة متأتية من قدمها ، اذا ما مزجت مع الماء أخرجت دُراً منضد ،كما نجد الأثر الفني البلاغي في نصه ، من خلال استعماله التضاد اللغوي في كلمتي (يبلى ، تتجدد) ، وكذلك الجناس البلاغي جاء في لفظة (العقود، تعقد) ، كان الهدف منه إثارة المتلقي ، إذ إن الأثر الأدبي ،إذ ارتبط بحال السامع ،وانبثق من نفس القائل ،فانه يقع موقعاً حميداً عنده فيوثر فيه[١]

ولا يفتأ الشاعر في الولوج إلى تفاصيل المكان الذي يشرب فيه مع ندمائه مصوراً بيئته الأندلسية أحسن تصوير، فالمياه الجارية في سواقي البساتين المستديرة، يجلس حولها الندماء متقابلين وعلى جانبها ، فيضع الساقي كأس الخمر في هذه الساقية ، فتصل إلى شاربها دون عناء ، وبعد شربهِ إليها يرسل كأس الخمرة في الساقية فتعود إلى الساقي ،صورة شعرية بديعة ، شارك فيها تراسل الحواس البصرية والحسية التي يشعر بها المتلقي ، كما نجد أنها تصور الحياة الحضارية الاجتماعية التي كانوا يعيشون فيها ، وما يدور فيها من نشوة وسرور ، فالمكان يورث الزهو والنشوة والراحة الفكرية ، إذ يقول[٢]:

وساقيةٍ تَسْقي الندامَى بمدّها .... كؤوساً من الصهباءِ[٣] طاغيةَ السكرِ

يعومُ فيها كلّ جامٍ كأنـــــما..............تَضَمّنَ روح الشمس في جسد البدرِ

إذا قصدتْ منّا نديما زَجاجةٌ .... تناولها رفقاً بأنمله العشرِ

فيشربُ منها سكرةً عِنبيّةً ....تنوّمُ عيَنْ الصحو منه وما يدري

---

(١) ينظر :البلاغة عرض وتوجيه وتفسير : ١١٤

(٢) ديوان ابن حمديس :١٩٦ـ ١٩٧

(٣) الصهباء الخمر ،أو المعصورة من عنب ابيض ، القاموس المحيط : ٩٩

وَيُرْسلـُها في مائها فيـُعِيدُها............ إلى راحتي ساقٍ على حـكـمـه تجري
جعلنا على شُرْبِ العـُقَار سَمَاعنا........ لحوناً تـُغنيها الطيــورُ بلا شِــعْرِ
وساقينا ماءً ينــيلُ بـــلا يدٍ .... ومشروبنا نارا تضييء بلا جمرِ
سقانا مسرات ٍ فكان جزاؤه ُ .... عليها لدينا أن سقيناه للبحرِ
كأنا على شطٍّ الخليج مدائنٌ .... تسافرُ فيما بيننا سُفُنُ الخمرِ

وتكثر المحطات المكانية في خمريات ابن حمديس ، فالبيئة الأندلسية، بما حوته من بساتين وأنهار جارية يستأنس بها القاصي والداني، فيدعو إلى شرب الخمرة في هذه الأماكن، إذ يقول(١):

إشْرَبْ على بـُرْكـَةِ نـَيْلـُوفرٍ .... مـُحـْمـَرَّةِ النَّوارِ خـَضْراءِ
كَأنـَّما أَزْهارُهَا أَخـْرَجـَتْ .... ألسـنةَ النـارِ منْ المـــاءِ

<u>البيئة الحضرية في خمريات ابن حمديس:</u>

لقد كثرت المحطات الحضارية عند ابن حمديس في خمرياته ، وكان من أهمها مباهج الحياة وانفتاحها ،فادى به إلى الإغراق في الملذات والبحث عليها عبر شرب الخمر واحتسائها ،فكان عنصر اللذة المحور الأساس الذي يسعى إليه الشاعر ،فالعيش الحقيقي لا يكون إلا بها ،إذ يقول(٢):

ومطردِ الأجزاءِ يصقل مـتــَنْهُ............ صبا أعـْلـَنـَتْ للعينِ ما في ضميرهِ

....

شربنا على خافاتـِه دَوْرَ سكـــرة................ وأقـْتـَلُ سُكْراً منه لَحْظُ مديرهِ
كأن الدجى خـَطّ المجرة بـينـنـا .... وقد كـُلـْلـَتْ حـــافاته ببدورهِ

....

كلفتُ بكاساتِ الصــبح مبــكراً .... وكم بركـــاتٍ للفتى في بكورهِ
هو العيش فاغنم من زمانك صفـْوَةُ........ وَصِدْ قـَنـصَ اللذات قبل مُثيره

---

١. ديوان ابن حمديس :ص ٣١

(٢) المصدر نفسه : ١٩٧

ويرى العيش لا يكون إلا في تطرف اللذة ، إذ يقول[١] :

وما العيش إلا في تطرف لذة ٍ .... وخلع ِ عذار ٍ فيه مـُسْتَحسَنُ العُذر ِ

وفي قصيدته الميمية يدعو فيها إلى اغتنام صفوة العيش باللذة الممزوجة بخمره معتقة ويتعجب ويتساءل عنها ، أفهيَ حباب مبتسم؟ أم هي عقيق فوقه درٌ منظم ، إذ كل الأجواء المحيطة به تدفعه في اقتناص اللذة، ، إذ يقول[٢]:

أُمدامٌ عن حـَباب ٍ تـبتسـمْ .... أمْ عقيقٌ فوقه دُرٌّ نـُظـِمْ

أعلى الهمِّ بعثنا كأســــنا......................... أم بنجمِ الأفق ِ شيطان رجمْ

....

أندى في الزهر أم ماء ُالهوى........................ حار في أعين ِ حُور ٍ لم تنمْ

....

كل ّ ذا يدعو الى مشـمولة ٍ .... فذر ِ اللوم علـيها أوْ فلـمْ

واغتنمْ من كلّ عيش ٍ صَفوْهِ.......................... فـألـذُّ العيش ِ صفوٌ يـُغتـَنـمْ

ويصف اللذة بعد حلولها بالجسد ، إذ يقول[٣]:

وَجِسم ٍ له مِنْ غيَرِهِ رُوحُ لذَّة ٍ........ سَليل ضرُوع ٍأُرْضِعتْ حاب السُحْبِ

والعيش الذي يراه لا يكون إلا بخمرة معتقة برائحتها الزكية التي نشرت عن بعد تروي العطش كل من شربها ،إذ يقول[٤]:

خذوا من الكـَرْم ِشَرْبة ً وَصفـتْ ....للشـَّرْبِ ريّا نـَسِيمُها كـَتـَمـــــه ْ

كأنما الدهرُ في تصـــــرّفه ِ ....أوْدَعَ في طول ِعمرها قـِدَمـَــــهْ

كأنما للمـثـى بها شــــفـَة ٌ ....فـَهـْيَ بكلّ الشفاه مـُلـْتـَثـمـَـــهْ

فالعيش ُ في شربها مـُعــتـَّقـَةٌ..................بسكرها في العقول محتكــــمهْ

---

[١]ديوان ابن حمديس : ٣٩٠

[٢] ديوان ابن حمديس : ٣٩٠

[٣] ديوان ابن حمديس : ٣٣١

[٤] ديوان ابن حمديس : ٣٣١

وفي نص آخر يظهر فيه منهجه في الحياة ، في امرأة وكأس ، إذ يقول[١]:

ملاتُ لها كفّ الصبوح زجاجـــةً .... مُذهِّبَةً بالراح فضةَ أنملِ

....

أدمْ لذةً ما متّعتكَ بساعـــــةٍ .... وما دمتَ عن عرق بغير ترحلِ

فما عيشةُ الإنسانِ صفوٌ جميعُها .... ولا أخرٌ من عمره نـــدِّ أوّلِ

والغناء والرقص إحدى المحطات الحضارية في خمرياته ، ففي قصيدته البائية ، بصف حالته النفسية ، فيتذكر حياته بين شرب الخمر وصيد النساء ، إذ يقول[٢] :

طَرِبْتُ متى كُنْتُ غيرَ الطَروبِ ؟................ فَلَمْ أُعِرْ الصبّا مِنْ رُكوبِ

فَيوْماً إلى سبَـــــيِ زِقٍّ رَويٍّ...................وَيوْماً إلى صَيْدِ ظَبيِ ربيبِ

وَمَهْما كَبَا بي فَمِنْ نَشْوَةٍ .... يوافقُها بين كأس وَكُوبِ

ويسترسل الشاعر فيصف الخمرة وصفاً دقيقاً ، إذ يقول[٣]:

ورَيحانةٍ أُمُّها كَرْمــــــةٌ .... تَنفّسُ في كَفِّ غُصْنٍ رَطيبِ

مُعتّقةٌ في يَدَيْ راهـــــبٍ................. على دَنِّها خــتْمُهُ بالصّليبِ

اذا أمرَضتْكَ وَخِفْتَ الصَّبُوحَ............... فَمُمْرِضُها لك غَيْرُ الطبيبِ

تُباكِرُ مِنْ صَرْفِها شَـــرْبَةً .... فتاةَ الوُثوب عَجوزَ الدبـيـــبِ

كأنَّ الحبَابَ لها جَمّـــــةٌ .... مُعمّمَةٌ رأسَها بالمــشيـــبِ

اذا صُبَّ ماءٌ على صِرْفِهـــا .... رأيتَ لهُ غوْصَةً في اللهيـــبِ

فَتُخْرجُ مِنْ قَعْرِها لؤلؤاً.................. يُنَظّمُ للكأسِ فوقَ التـــريـبِ

تناولتُها ونسيمُ الريـــاضِ .... ذَكيُّ النسيمِ عليلُ الهبُـــــوبِ

وَغيدٍ لطَائِفُ ألحـــانِها..................... تُنَغّمُها لِسرورِ الكئيـــبِ

(١.) ديوان ابن حمديس : ٣٣١

(٢). المصدر نفسه : ٣٩

(٣)- المصدر نفسه : ٤٠

نلحظ في صورة المشبه به متعددة الوجه ـ اللون ـ الصوت ، فهذه الخمرة عندما يضاف إليها الماء يكسوها ثوب من البياض ويرتفع فوقها فقاقيع ، وكأنها لؤلؤ ٌ ينظم فوق أعلى الصدر ، كما أن تراسل الحواس يظهر في النص في حاسة البصر في لوني الأبيض والأصفر ، كما أن الأثر الأندلسي بما تتمتع به هذه البلاد من هبوب الرياح في كل موسم كان حاضراً في النص .

وللمرأة حضور في هذا المجلس فتشاركه في مباهج الحياة ، فقد خضبت بالحنّاء أطرافها فصار لها كالأقماع ، فضلا ً عن الراقصات بما يقمن من حركات ٍ أثناء الرقص فهن يشرن إلى أعضاء الجسد بأناملهن وهي تغني ،وما يحل به من تعذيب الهوى ، فإذا ما ذكرت دمعاً أشارت إلى العين ،وان وصفت وجداً أشارت إلى القلب ، وهي تعبر عن تدلل المحبوب وتذلل المحب بما يليق بهما من الإيماءات الحسية والحركات المنبهة على ما أرادت ،إذ يقول(١):

فكـُلُّ مـُقَمّعَة ٍ بالـْعَــــقِيقِ.........من الدُرِّ أغصانَ كَفٍّ خَـــــــضيب ِ

تنَبّهُ مُطْرِقَة ً في الحُجُـــور.......... تـُغْرِي الأكفَّ بِشَـــقِّ الجـيــوبِ

إذا أسْمعتْ حَسَناتِ الغنـــاء .... شَرِبنْا عليها كـُـؤوسَ الذنــــوب ِ

وَسُودِ الذَّوائبِ يسْحَبْنـــَـها......... كَسَعْي الأسَاودِ فـــ.ـــوْقَ الكـثيب ِ

تـوَافَقُ بالرَّقــــْصِ أقدامـُهُنّ .... يَطـَــأْنَ بها نـَغَمَاـــــــت الذُنوب ِ

يُـشِرْنَ إلى كلِّ عـُضوٍ بــــما......... يـَحُلّ به في الهوى من كُــــــروبِ

بـَسَطْنا لها . وهي مثلُ الغصون ِ .... تميسُ بهَبِّ الصَّبا والجَـــنــــوب ِ

على الأرض ِمنا خـُدودَ الوجوه .... وبينَ الضّلوعِ ِ خـُدودَ القـلــــوب ِ

ولا ينفك الشاعر في خمرياته في البحث عن المرأة اللعوب ، فيصبح الحوار بينه وبينها لما يرمي إليه وما يريد في حديث متناغم يشير نشوته وحصول اللذة التي يسعى إليها ، إذ يقول(٢):

---

(١) ديوان ابن حمديس : ٤١

(٢) المصدر نفسه، ٣١٧.

هات كاس الراح ِ أو خذها إليك ْ.................. يـنـْزِلِ اللهوُ بها بين يديكَ

رِقةُ العيش بها فاخلـــع على...................... شفتيها كلَّ حينٍ شفيــتـكْ

وأطعْ فيها نـدِيميك بمـــــا......................... حَكَما واعصِ عليها عاذِلَيكْ

وإذا سُقِّيْتَ منهـــا شفقاً........................ طلـَعَتْ حُمْرَتُهُ في وجنتيكْ

وتناول نشوةً من روضـــةٍ .... طلعت كالشــــمس بالنجم عليكْ

....

فاوَضتْ في الوصْل عيني عينها............فازْدهتْ عجباً وقالت :ما لديـــك ؟

أعليلٌ أنت ماذا تشـــتهي ؟................ قلت : قطفي بيديْ رمّانتــيـــك

فانثنتْ كِبَراً وقالتْ: وَيــلنا.................. أوَ هذا كلّهُ تطلبُ وَيْـــــك ؟

أنا شمسٌ وبعيد فلـــكي .... وضيائي نافرٌ من راحـــتيـــك

لو بدا أمركَ لي من قبـلِ ذا..................ما رَأتْ ناظرتي ناظــرتــيـــك

وكان للساقية في خمرياته نصيبٌ، فيمازج بين الخمرة وكأنها فقاعات تطفو على سطح الكوب ، وبين جمال الساقية المغنية وقد ملئت بأرواح الشاربين من طرب ونشوة وسعادة ، بنغماتها التي تزيل الهموم وترميها وراء الظهر ، وهي تحمل في كفها ريشة عود فتمازج بين الفم والغناء ، إذ يقول([١]) :

يا حُسْنَ ساقِيَةٍ تـَمُدّ أناملاً .... بِعَروسِ راحٍ في عقُودِ حَبــابِ

تَسْقيكَ شَمْسَ سُلافةٍ عِنَبيّةٍ............ طَلَعت ْ على الفلكِ مِـــن العُنّابِ

ومُنَبّهٍ في حِجْرِ من شدواتها............ تـثْني الهمومَ بها على الأعقـــابِ

وكأنّما الأجْسامُ مِنْ إحسانـِها............ مُلِئَتْ بأرواحٍ من الإطـــــرابِ

وَكَأنـّما يدُها فـَمٌ مُتَكــلِمٌ............ بالسِحْرِ فِيهِ مِقْوَلُ المِـــضْرابِ

القارئ للقصيدة يستطيع أن يتصور الأحداث المتنوعة أمامه ، وكأنها تمر كشريط سينمائي ، يظهر فيه حركة وجمالاً في جو مفعم بالمسرات ، وهذه الصور تتمحور في

١. ديوان ابن حمديس : ٤٨ـ ٤٩

حسن الساقية الجميلة المشرقة وهي تدور على الشُراب ، كما نجد الصورة الثانية في هذا النص هي الخمرة ذات اللون الأصفر الذي يبعث في الحياة ،فهي أصيلة ، كما نلحظ الشاعر قد وظف تراسل الحواس في إشراك المتلقي معه ، في حواس السمع والبصر واللمس ،وكأن المجلس حياً متحركاً يتفاعل القارئ معه ، فضلاً عن استقرار حياة الأفراد في المجتمع .

وفي نص آخر يصف مغنية ينعم بصوتها الندماء ، بصوتها الناعم المرخم ، وفي حضنها ألة الطرب (العود) ، فيصفه وكأن القارئ يراه أمامه ،فله عنق طويل ، فارغ في بطنه مجوف ،وله حدبة ، فإذا ما مرت عليه المغنية بأصابعها الناعمة ارتفعت النغمات فأثارت السامعين ، ويتساءل الشاعر عن سحر هذا الغناء من ألةٍ خشبية صماء لا حياة فيها ولا حراك..... ؟ ولا تكتمل هذه المحطة الحضارية للشاعر وندمائه إلا بوجود الخمرة التي يسعى إليها ، فيصفها وكأنها شعلة برق مضيئة في السماء والغيوم ، كما أن الأثر الأندلسي كان واضحاً في هذه البيئة ، من غيوم وأمطار وثلوج عرفت به الأندلس ، فيقول[1]:

أصبحتُ جذْلانَ طَيّبَ العرَبَهْ ..... والكأسُ تُهدي الى الفتى طرَبَهْ
وذي دلالٍ كأَنَّ وَجْنَتَهُ..... مِنْ خَجَلٍ بالشَّقيقِ مُنْتَقِبَهْ
في حجرهِ أجوفٌ له عنُقٌ..... نِيطَتْ بِظَهرٍ تَخالُهُ حَدَبهْ
يَمُدُّ كفّاً إليهِ ضاربةً .....أعناقَ أحزاننا إذا ضَرَبَه
تحسب لفظاً بأخْتِها نغماً ..... وَيودِعُ المِسْمَعينِ ما حَسَبَه
قلْتُ ألاْ فانظروا إلى عَجبٍ .....جاءَ بِسِحرٍ فأنْطَقَ الخَشَبَه
وَقَهْوةٍ في الزّجاجِ تَحسِبُها ..... شُعْلَةَ برقٍ في الغيمِ مُلْتَهِبَه
كأنما الدهرُ مِنْ تَقادُمِها ..... أودعَ في طُولِ عُمرِها حِقبَه
ماءُ عقيقٍ اذا ارتدَى زبداً .....حَسَبتَ دُرّاً مجَوّفاً حَبَبَه

١ـ ديوان ابن حمديس : ٤٧ ـ ٤٨

يُسْكِرُ من شمّهُ بسَوْرَتهِ .... فكيفَ بالمنتشي إذا شرِبَـــه
وَذِي حنين تحنُّ أنفسُنا ....إليه منقادةً ومنْجذِبـــه
يُفشيهِ ذو حكمةٍ أناملهُ .... منغّماتٌ بزَمْرِهِ ثُـبَـه
يُرْسِلُ عَنْ منْخَرَيه مِنْ فمِهِ.................... ريحاً لها نغْمَةٌ مِن القصَبَه
كأنَّ ألحانهُ الفصيحةَ مِنْ....................... صريرِ بابِ الجنانِ مُكْتَسبه

كما نجد إشارة على شرب الخمرة للمرأة في هذه البيئة الحضرية ، مخالفة بذلك القيم الدينية والعرفية في آن واحد ، فقصيدته البائية يبدؤها بخمرة تسمى خندريس، معتقة عرُف أصلها من رائحتها زكية ، وقد شاركه هذه الجلسة أمرآة مدللة شربت الخمرة معه وسقته من فضل ما شربته ، إذ يقول[1]:

خندريسٌ عتقتْ في أجـوفٍ .... من دم العنقود مملوءٍ نُخَبْ

....

دفنوا اللذةَ فيها حيـــةً .... وأتى الدهرُ عليـــها وذهبْ
ظنه كنزاً فلما أنتـــســـب....................... منهُ للأنف دَرّى النســـــبْ

....

ومليح الدلّ إنْ علَّ بهـــا.................... قلْتَ نجمٌ في فم الــبدرِ غــربْ
شعشعَ القهوةَ في صوب الحيا .... وسقاني فضلةً مما شـــرِبْ
فتلاقى في فمي مِنْ كأســهِ...................... ماءُ كَرْمٍ وغـــمامٌ وَشَنَبْ

وفي قصيدة أخرى نرى صورة المرأة اللعوب التي تسقيه الخمر من كفها ، ويقبلها فتختلط رضابها مع خمرته التي في فمه ، إذ يقول[2] :

ما زلتُ أشربُ كأسَهَ من كفهّ..................... ورضابُهُ نُقْلٌ على ما أشرَبْ

---

١. ديوان ابن حمديس : ٦٩ـ ٧٠
٢. ديوان ابن حمديس : ٤٦٥

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد.....

فإن لكل بداية نهاية وها نحن نصل إلى نهاية البحث لنستخلص أهم النتائج التي توصلنا إليها وهي :

١. سهولة ألفاظ القصيدة الخمرية ، إذ كانت بعيدة عن التعقيد الذي لا ينسجم مع حياة الأندلسيين .

٢ـ سار الشاعر في خمرياته مساراً موضوعياً شعرياً ، في الوقوف على أدق تفاصيلها ومفرداتها بفنية عالية ، وقد تنوعت بأشكال وأنماط مختلفة ،فقد اتخذت شكل القصائد المستقلة تارة، وتارة أخرى كانت مندمجة مع الأغراض الأخرى ولاسيما المديح .

٣ـ ثار الشاعر على نظام القصيدة العربية في الوقوف على المقدمات الطللية ، ودعا إلى إبدالها بالمقدمات الخمرية .

٤ـ إن تناول الشاعر للخمرة لم يكن سلوكاً فنياً يجاري به الذوق العام السائد في عصره ، بل كان سلوكاً اجتماعياً ، تناول الخمرة وعاش معها وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياته.

٥ـ يُعد عنصر التشخيص بارزاً في خمرياته ، فحين تقرأها تحس وكأن الخمرة موجودة إلى جنب المجتمع البشري ، مجتمعٌ عاطفيٌ شديد التأنق .

٦. كانت خمريات ابن حمديس تصف مجالس الإنس ، والأنهار الجارية والأزهار الفواحة ، والأوتار الصداحة والكؤوس الطافحة والسقاة الخفيفي الحركة .

المصادر والمراجع

١. أثر كف البصر على الصورة عند أبي العلاء المعري ،رسمية موسى السقطي ، مطبعة أسعد ، بغداد ،١٩٦٨م.

٢. الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ،د.أحمد هيكل ،دار المعرف بمصر ،١٩٨٥م.

٣. الأدب العربي في الأندلس تطوره ـ موضوعاته وأشهر أعلامه ،د.علي محمد سلامة ، ط١، الدار العربية للموسوعات ،١٩٨٩م.

٤. الأصوات اللغوية ، محمد الخولي ،ط١، مكتبة الخانجي الرياض ، ١٩٨٧م.

٥. بلاغة العرب في الأندلس ، أحمد ضيف ، دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسة تونس

٦. البلاغة عرض وتوجيه وتفسير ، محمد بركات ابو علي ، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع

٧. تاريخ الأدب الأندلسي ،د. محمد زكريا عناني ،دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩م.

٨ـ تاريخ الأدب العربي ـ عصر الدول والإمارات الأندلس ،د.شوقي ضيف ، ط٢،دار المعارف بمصر ، ١٩٩٤م.

٩. جواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي ، دار الفكر بيروت .

١٠. ديوان ابن حمديس الصقلي ، تعليق د. يوسف عيد ،ط١، دار الفكر العربي بيروت لبنان

١١. الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه ، أميلو جارثيا ،ترجمة حسين مؤنس ،ط٢، دار الرشاد القاهرة ،٢٠٠٥م.

١٢. الشعر الجاهلي (منهج في دراسته وتقويمه) د. محمد النويهي ، القاهرة ، الدار القومية للطباع والنشر .

١٣شعر الرمادي ، تحقيق ماهر زهير حداد ، المؤسسة العربية للدراسات بيروت ١٩٨٠م.

١٤. الشعر العربي في جزيرة صقلية ، اتجاهاته وخصائصه الفنية منذ الفتح حتى نهاية الوجود العربي فيها ، د. أسامة اختيار ،ط١،وزارة الثقافة . دمشق ،٢٠٠٨م.

١٥. شعر الطبيعة في الأدب العربي ، سيد نوفل ، دار المعارف .

١٦. العرب في صقلية ، د.إحسان عباس ،ط١، دار بيروت لبنان ، ١٩٧٥م.

١٧. في الأدب الأندلسي ، جودت الركابي ،ط٢، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦م.

١٨. في الشعر الأندلسي، د. عدنان صالح مصطفى ،ط١،دار الثقافة . الدوحة ، ١٩٨٧م.

١٩. القاموس المحيط للفيروز ابادي ت ٨١٧هـ ضبط وتوثيق وتعليق ، يوسف الشيخ محمد البقاعي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،٢٠٠٥م.

٢٠ـ اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي تلازم التراث المعاصر ، محمد رضا بركات ، دار الشؤون الثقافة العامة ، بغداد ، ١٩٩٣م.

٢١. المختصر من قطب السرور اختاره علي نور الدين المسعودي ، تحقيق ، عبد الحفيظ منصور ، تونس ، ١٩٧٦م.

٢٢. مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي ، دراسة موضوعية ،د. هدى شوكت بهنام ، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ،٢٠٠٠م.

٢٣ـ المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ، د. محمد عبد صالح ،ط١،دار الأفاق العربية ،٢٠٠٧م.

الرسائل الجامعية

١ـ خصائص الأسلوب في شعر البحتري ، أطروحة دكتوراه ، وسن عبد المنعم ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٨م.

٢ـ الوطن في المنظور النفسي في شعر ابن حمديس الصقلي ،ستار جبار رزيج ،جامعة بغداد ، كلية الآداب ، أطروحة دكتوراه مسحوبة على الانترنت ،

المجلات

١. الخمرة بين عصرين في شعر ابن حمديس وأبي نواس (دراسة مقارنة)،أمل صالح رحمة ، مجلة كلية التربية ، المجلد ١٩. ٢٠٠٨م.

Abstract Search

The Andalusian great place in every Arab and Muslim, but her ordeal in the same Muslim ring sad, but civilization at every cultured prestigious location inside, in every age of Ages literary enjoys writers standing down in history over the years, among them poets, poet Abdul Jabbar bin Hamdis Sicilian (d. 527 AH), the poet, which he described d. Ahsan Abbas that (gave his youth to love and war and the enjoyment of life and Maizha was out with his family to bars or monasteries to drink wine and hear singing and enjoying study examined these addresses several launched on the first address: winery psychological, where make winery and means of overcoming the worries and sorrows, and was following address: winery technical terms out the poet in Khmryate on inherited cash to build Arabic poem, in stand on the ruins, and called to make winery substitute for these ruins. followed talked about manifestations of time in Khmryate , which dealt with the nostalgia poet to last through time in which they live and the injury of aging and loss of youth and the loss of pleasure and crying out. then took places drinking alcohol when poet of monasteries full of Balandme and companions, orchards and kindergartens are open and collapsed under way, was domesticated by the poet and loves drink where In other topic of Khmryate addressed urban environment that emerged in the Khmryate in the search for pleasure and the presence of women dancing and Sakia and singer, and then terminated Search Conclusion The most important results, In conclusion I thank God that managed to accomplish this, to be the building block of scientific edifice in Andalusian literature.